

رحلة إلى العراق

لأديب رصيفي الشهابي

ذكريات وضواطير :

في أصيل يوم من أيام الخريف سنة ١٩٤٠ انطلقت بنا السيارة الحبارية من دمشق ، تخترق شارع بغداد ، وسط حداقة وقصوره ، وتناسب مع قنوات بودي وجداوله ، بين بساتين الغوطة الفerna ، وتحت أدواحها الباسقة ، وخلال المروج السندينية ، وحضررة البقول على أنواعها . وكانت صفرة الشمس قبيل الغروب تحاكي أوراق الشجر في هذه الأيام الذهبيات التي يخلع فيها الشجر حلته المذهبة الجائمة ليكتسي في الريح حلقة غضراً من الخضراء الحائمة .

ولم يغب عن أعيننا زيتون دومة وكرومها حتى بدت لنا نسمة العقاب حيث وقف خالد بن الوليد ناثراً راية العقاب في وجه ذلك السهل الأفريح ، فودعت هناك دمشق والغوطة وأنا أترنم بأبيات حسان بن ثابت التي مطلعها :

لله در عصابة نادمتمهم يوماً يحلق في الزمان الأول
وأعدت إلى المذكرة أبيات حسان بن ثير ولا سما الآيات الآية :
ويا بردى لا زال ماوك بارداً وما الحجا من ساحتيك ثير
ولا زال ظل النيرين فانه طويل ويوم المرء فيه قصير
أبي العيش إلاين أكتاف جلق وقد لاح فيها آنس وبدور
وما كدنا نتباخن في « خان عياش » على بعد ٣٦ كيلو متراً ونصفاً
من دمشق ، ونجناز قبيل الغروب قرية ضمير ومعبدها القديم ٤٠ كم
من دمشق ، وحان أبو الشامات ٥٦ كم من دمشق وفيه مخفر

ومكس ، حتى احتوتنا الصحراء ، وحق دخلنا في غمرتين من ليل وجوجي وبردا عزامية الآفاق . وربما كان من أشق الأمور على المسافر أن يكون في سيارة تهب به الأرض نهائاً ، فلا الغلام الدامس يتبيح له أن رى شيئاً خارج السيارة ، ولا اهتزازها يمكنه من القراءة أو النوم . والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يأتيه ، هو أن يتسود وسادة وثيرة ، ويطلق العنان لأفكاره ، ويفرق في خضم من الأختيلة الشعرية ، ومن التصورات التي تحس أو لا تحس ، والتي لها ظل من الحقيقة أو لا .

وهكذا انقضت ليتنا في بادية الشام . فلقد كنت فيها رفيق أقدم مدنيات عرفها التاريخ على هذه الكرة الأرضية . وإذا بي أتصور في الخيال ما كانت عليه أجيال السومريين ذوي الحروف المسمارية ، الذين عاشوا في أسفل سقي الفرات منذ أربعين قرناً قبل الميلاد في أريادو ولكانش وأور و المغير و اووروك و الوركا ، وغيرها ، وما خلفوه من نقوش وتماثيل وهياكل ومعابد ، وما أنتفنوه من علوم الحساب والهندسة والفلك ، وما سنته من الشرائع المعقولة في تلك الحقب الخواли .

وتحليلت موجات الساميين ، أي العرب الأقدمين ، من قلب جزيرة العرب ، كوجه الأكديين إلى الفرات الأوسط ، في أوائل الألف الرابع قبل الميلاد ، ومدنיהם الساطعة في كيش « الأحيمر » وبابل وبورسيا « برس غرود » ، قبل أقدم مدينة مصرية . وكوجه العموريين في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وأشهرهم حمورابي صاحب الشرائع عشر قبل الميلاد . وذكرت تناقل بابل وآشور ، ومظالم الآشوريين ، وسقوط دولتهم ، وقيام دولة بابل الكلدانية الجديدة ، ومنها يختصر صاحب الخدائق الملقاة الشهيرة . وأعدت إلى الخاطر استيلاً الفرس على بابل ، وفتحات الاسكندر الكبير ، ودولة السلوقيين ، ودولة البرئين ، وتسلط

الروم ، وقيام الدولة الساسانية ، وانقسام العرب في أطراف العراق والشام قسمين قسماً مع الروم وآخر مع الفرس .

ثمرأيتني أبتسم ، وشعرت بفؤادي يهفو لانشق الكون بقوله النبي العربي ، واتطهير الجزيرة من رجس الأصنام ، ولاجتاع العرب على عقبة واحدة وفكرة واحدة ، ولتكون فوة عظيمة من قوى العرب المبعثرة ، ولتولد روح الطموح في نفوسهم ، ولا جماعهم على ضرورة إعادة « الحال » إلى أمه الجزيرة ، وتجادهم في سبيل الله ، وفي بث كلمة الله العليا في مشارق الأرض ومغاربها .

واشتدت السيارة في عدوها ، وهي تطارد الغلام في ذلك السهل الأفيع . وصحوت قليلاً من غفوتي على ذكريات تارikhنا العذاب ، فإذا بي أرى جيش سعد بن أبي وقاص وقد كتب له النصر في القadesية ، وأرى المشي بن حارثة الشيباني يستولي على السواد كفراً كفراً ، وألح عياض ابن غنم يفتح الجزيرة أي ديار ريمه بلاداً بلاداً . وهو ذا الصحابي عنبة ابن غزوan قائماً يخنط البصرة ويحصرها . وهو ذا سعد فارس الإسلام وفاتح مدائن كسرى وأحد العشرة المبشرين بالجنة قائماً في الكوفة يعلم على مواقعها ويحملها خططاً لقبائل العرب .

وتناثلت في الخاطر قيام أسواق العلم والأدب واللغة في هاتين المدينتين وسابقاها في هذا المضمار ، وكيف وضع أبو الأسود الدوري أنس علم النحو ، وكيف نقل أهل البصرة والكوفة اللغة وأساليبها عن أعرق القبائل العربية وأبعدها عن الأعاجم والمعجمة ، ثم كيف بث هذان المcrسان كعبية اللغة والأدب حتى بناء بغداد وانتقال العلوم والعلماء إليها . وبينما أنا غارق في لجة هذه التأملات ، وقد رد المواه ، وكاد الدليل ينتحض ، وإذا بزمر السيارة يدوي طويلاً ، وإذا بنا نقف أمام باب عظيم ، وعلى جانبيه سور شاهق ، والعلم العراقي المربع الألوان يرفق فوق الرؤوس ، والشرطى العراقي يهدى الناس إلى غرفة المكس مترافقاً

متها . وسألت خادم السيارة أين نحن ؟ فقال في « الرطبة » . وهي واحة صغيرة ، بل محطة قائمة في وسط الصحراء ، في منتصف الطريق ، ينبع دمشق وبغداد ، على بعد ٤٢٠ كيلومتراً من دمشق ، فيها فندق ومعلم ومكتب للبريد والبرق والهاتف ، وأآخر المكس وجواز السفر ، وفيها مدرسة ناجية ينظر في شؤون الادارة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالأمن العام .

وما ان ولنا مقهى الفندق النظيف ، حيث وسائل الراحة موفورة ، حتى بزرت لاعيننا صورة الملك عزيز رحمة الله يحيط بها العلم العراقي . وقد استوقف نظرنا فيما بعد أن صور فيصل الأول وغاري وفيصل الثاني وبعد الله يحيطها المرء لا في دوائر العراق الحكومية وحدها بل في معظم الأبنية العامة كالفنادق والمقاهي ودور السينما والنوابي وأبنية السباق والفتوة والالعاب الرياضية وغيرها . وما دخلت داراً من دور رجال الدولة وأرباب الوجاعة والزراعة في بغداد إلا وجدت في بهوها ت غال او صورة لفيصل الأول في قبيان العرب وباعت يقطنة العراق الحديثة .

ولم تك نستريح ساعة في فندق الرطبة حتى دعينا إلى استئناف السير ، فعادت السيارة تطوي بنا الأرض في الليل البهيم ، وعاد السفر إلى تخيلاتهم وأحلامهم . وألفيتني أشاهد زوال دولة الامويين ، وانتقال الخلافة إلى العباسين وعلى رأسهم أبو العباس السفاح ، وكأني أرى أبا جعفر المنصور يخط مدينة ازوراء ، وأرى بغداد في عصر الرشيد وعصر المأمون ، وقد سارت حاضرة العلم والأدب والشعر والفلسفة ، وارى المعتصم يخط الخطوط في مدينة سامرا فتصبح عاصمة الدولة الثانية .

ثم ما عتمت النفس أن اتفقشت مذكورة أفاليل الشعوبية والجراء والترك الماليك ، ومذكورة نشوء الدول الفارسية والتركية كالبوهيمية والطولونية والأخشيدية والقزنوية والسلجوقية ودول الاتراك وغيرها ، وكيف اضحت مدينة العرب الزاهرة في العراق ، وأسرع إليها المهرم ،

ولا سيما بعد ان انقض علينا من الشرق برارة المقول والتمر ، وعلى رأسهم مدمر و المدمرة والمعرات ، أمثال جنكير وهو لا كوي وبيمور ، وكيف استولى الترك العثمانيون على البلاد العربية ، وتحكموا فيها بضعة قرون ، ثم خرجوا منها بعرکبات البقر ، كما دخلوا اليها بعرکبات البقر ، على حد قول أحد المؤرخين الـ«وريين» ، فلا هم احتفظوا بعذنية العرب وافتتهم ، ولا أوجدوا مدينة خاصة بهم ، ولا اقتبسوا شيئاً يذكر من مدينة الغرب ، وكل ما عملوه أنهم ناموا هادئين على ما فات المقول والتمر من بقايا المدينة العربية ، ثم غطوا في سباتهم ، بينما كان العالم الـ«وري» يصعد في مراقي العلوم والمعارف بخطى الجبارية .

وأعدت علىibal وقائع الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ - ١٩١٨ م) وذهب الانتحاريين إلى أنها فرصة يجب اهتمامها للقضاء على الروح الوطنية في غير الترك من أقوام الدولة ، ومظالم الانتحاريين الفاشية لا سيما في ديار الشام ، وقيام الثورة العربية في الحجاز ، والتحق نفر كريم من الضباط العرب بها ، وخروج فيصل بن الحسين من الشام واعتلاء عرش العراق ، وانتهاء الانتداب في العراق ، وبلغه في مراحل المفاوضات درجة الاستقلال ، ورأيتها ابتسم لهذه اللفظة الاـ« الأخيرة » ، وإذا بالصبح آذن بالسفر ، وإذا بما نترسم معالم الصحراء في عيش الليل ، حتى إذا بز الصبح الذي عين ، وامتد النظر إلى الآفاق ، لاحت لنا عن بعد أشجار وبساتين ، فسألت خادم السيارة عنها ، فقال هذه هي الرـ«مادي» .

والرمادي بلدة على الفرات بين هيت شمالاً والفلوجة جنوباً ، تبعد ٧٣٨ كيلومتراً عن دمشق بطريق الصحراء . وهي اليوم قاعدة متصرفية الدائم . رأيت فيها شارعاً عريضاً نظيفاً منقناً ، وحدائق بلدية غناء . وهي مركز مهم للمكس تمر بها قوافل السيارات بين العراق والشام مخترقـة الbadia . ولم ينكمـت فيها إلا ربـها شخص عامل المكس بعض حقائب المسافرين برفق وأنـة ، ثم استأنـفـنا السـيرـ إلى الجنوب ، ووجهـناـ القـلـوـجـةـ ،

ونحن نلقي نقترب من الفرات وطوراً ينبع . ولاحت على يسارنا سفائف المغار الانكليزي في سن الذبان ، وهو ما لبث لانكلترة في العراق بعوجب معاهدة تحالف بين الدولتين . وفي سن الذبان أو الخباقة تقيم حكومة العراق اليوم سداً عظيماً على الفرات تخرن الماء وسد عاديته عن المدن والقرى أيام الفيضان . وسيكون هذا السد صالحأً أيضاً لاسقاء مساحات واسعة من الأرض بين الفلوحة وكوت الامارة .

السواد وبغداد :

ولم يطل بنا المدى حتى بلغنا الفلوحة (١) . وهي بلدة جميلة على الفرات قبالة بغداد . وقد أقيم حديثاً عندها جسر من حديد عظيم متين تمير عليه السيارات من الشامية إلى السواد . والسواد هو تلك البقاع والكور التي تقع بين دجلة والفرات من الجزيرة شمالاً إلى شط العرب فبادان جنوباً . فهو إذن معظم سهل العراق وأجوادها . وقد ساء أجدادنا العرب سواداً لخضراته بازروع والأشجار . وكانت معظم أراضيه تشق سيجاً بالأنهار والحداول العديدة التي تتفرع من دجلة والفرات والخابور عند السدود التي كانت تقام على تلك الأنهار العظام . وكان السواد عامراً عند الفتح الإسلامي ، فأقرّ المسلمين ذلاجيه على أرضهم ، وجيوا خراجها برفع ، وسدوا البيوق في السدود ، وكرروا ما ردم من الأنهار . ولم يكتفوا بذلك ، بل أقاموا سدوداً جديدة ، وحفروا آلافاً مؤلفة من الأنهار والحداول ، ولا سيما حول المدن التي مصروها كالبصرة والكوفة وبغداد وسامراء وغيرها

وقد وصف الاستاذ حمزة ألوه الأنهر التي حفروها في كورة البصرة وصفاً يكاد لا يصدقه العقل إلا أنه حقيقة . وما قاله انه كان يرى أحياناً

في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار الصغار نجيري في كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم يناسب به إلى صاحبه الذي احتفظ ، أو إلى الناحية التي يصب فيها . وجوز عندئذ أن تكون أنهار كورة البصرة قد عدت أيام بلال بن أبي بردة بعائنة وعشرين ألف نهر وجدول كبار وصغر .

أما بين بغداد والكوفة فقد وصفه الاستاذ حمزة بقوله انه سواد مشتبك غير مشتبك تسقيه أنهار تتدفق من الفرات إلى دجلة . ويتبين من ذلك أن معظم سهل العراق والجزيرة وأخصها كانت تسقي سيجاً أيام الامويين وفي صدر خلافة العباسيين . وقد تبعت موافع السدود التي كانت على الخابور مثلاً « في القسم السوري من الجزيرة » ، ورأيت الأنهار المردومة التي كانت تشتق منه . ولم استغرب بعدئذ قول أحد مؤرخي العرب بأن جميع مياه الخابور كانت تسقي الأرضين في الصيف فلا ينصب منها شيء في الفرات في قرقيسيا « البصيرة » وأنيس لي في رحلتي إلى بغداد أن أرى عشرات الأنهار المردومة بين الفلوحة وبغداد وسامراء ، وبين بغداد والنجف . وفي الحقيقة أينما سار المرء في السواد فهو يسير بين الأنهار والنجف . والحقيقة التي جعلت العراق أيام الرشيد والأمويون جنات من الزرع والشجر . ولا غرابة بعد هذا أن يقدر سكان العراق في تلك الأيام بعشرين مليون نسمة ، وأن يبلغ خراج السواد مائة ملايين دينار (١) .

ويقول المنصوبون من الكتاب الأوروبيين ان ازدهار السواد أيام البابليين والساسانيين أخذ يزول أيام العرب إلى أن أصبح معظم السواد خراباً في أيام الناس هذه . والحقيقة أن السواد لبث على حاله ، بل ازداد ازدهاراً وتوسعاً ، طيلة القرنين الاولين الذين كان فيما الحكم الصحيح

(١) الدينار القديم يساوي نصف دينار ذهبي من دنارات هذه الأيام أي نصف جنيه انكلزي ذهبي تقريراً .
٢٢٤

(١) الفلوحة في اللغة : الفربة والارض المصلحة المزرع ، وابن الفلاح . ومنها قلابيج السواد .

العرب . والبئوق التي حصلت في حروب الامميين والخوارج سدت في صدر الدولة العباسية ، ولم يبدأ حرباً السود الا بعد أن أخذ الانجام بانتصارات على العرب ، ولم يتم الا بعد هجوم المغول والتنز وانتقال الحكم الى الدولة العثمانية .

اعدت الى الخاطر هذه الذكريات والسيارة تهب الارض بين الفرات ودجلة . والارض معظمها براح . وفي كل بعض دقائق تجتاح نهرأ او جدولأ قدماً مردوماً . وما اين اقتربنا من بغداد « وهي على بعد ٨٥٠ كيلو متراً من دمشق » حتى أشار أحد المسافرين الى بي « يلمع عن بعد في الجهة الشمالية من الطريق ، فنطأوا لما عساها نحر ما يكون . واذا بالخادم يقول لنا اتها قبة جامع الكاظمية شمالي بغداد ، وانها مصفحة بصفائح الذهب ، ولهذا يكون لها في الشمس ذلك البريق . ولقد أتيح لي بعدئذ ان اشاهد هذا المنظر قبيل الغروب من المكان نفسه ، فاذا به منظر فريد لا شبيه له على الكرة الأرضية . فهناك قبتان عظيمتان وماذن شاهقة في صفرة الذهب الابريز ، تلاّلاً وتتلمع ، وتكسر أشعة الشمس ، وتثثرا على شجر النخيل قلائد من العقيقان . وكلما مشت السيارة خطوة تبدل شكل ذلك المثير من الاشعة الذهبية ، وترافق بين خوص النخيل ، وانثر في الفضاء انتشار الدر من العقد ، او انتشار حباب الماء من فواره اضيئت بالكهرباء في الليل الباهم .

ولم نسر قليلاً حتى بدأ بغداد دورها وقصورها ، ثم دخلنا في شارع عريض مزفت غرس جاباه بأنواع الشجر ، ووقفنا في محطة شركة السيارات « زن » وهي أمام بناء مطار الكرخ المدني ، على بضعة كيلو مترات من قلب المدينة . ووجدنا في المحطة لفيفاً من الأصدقاء ، ومرافق العميد الركن السيد طه الحاشمي وزير الدفاع ، ومثلاً لوزير المعارف السيد صادق البصام ، والماري الكبير العلامة ساطع الحصري مدير الآثار ، وجهوراً من الادباء والوجهاء والاساتذة غمرتنا بأنفسهم وأدبهم العجم .

وكان شارع الملك فيصل أول شارع مأهول مررتا به من شوارع الكرخ ^(١) وهو من درج زرعت الازهار وبسط الخضير في وسطه . وقام في ساحته بين الزهر والريحان ثنايا فيصل بن الحسين في بذاته العربية مهتماً جواداً عريباً ووجهه يستقبل الآتين من الشام . وبعد التمثال جسر الملك فيصل على دجلة طوله ٢٥٠ متراً ، وهو من أعظم الجسور الحديدية ، لا يقل رونقاً وعظمة عن أجمل جسور القاهرة . وبعد الجسر يمتد شارع الرشيد من الشمال الى الجنوب موازياً للدجلة . وهو شارع الفنادق والمتاجر الكبرى ودور السينما والمالهي ، وفيه حركة مستديمة من السيارات والمعجلان

عمران بغداد :

قال لي أحد الوزراء في بغداد : يا ليتك عرفت هذه المدينة قبل عشر سنين أو قبل عشرين سنة ، اذاً لامكك ان تتبع حركة عمرانها خطوة خطوة ، فلقد كانت بغداد أيام الترك العثمانيين « كسائر المدن في تلك الدولة » مجموعة دور متلاصقة مكتظة يبلغها سكانها في ازقة ضيقة موعنة قلما يتتجاوز عرض الواحد منها ثلاثة أمتار أو أربعة . وكان الجسر الذي يصل أحد قسمي المدينة بالثانية ألواماً من الخشب « مدلت على عدد من الزوارق . وربما طغى النهر في الشتاء ، بغرف هذا الجسر ، فلبت جزءاً المدينة أبي الرصافة والكرخ منفصلين أيام عديدة . وكل ما عمله الاتراك انهم فتحوا شارع الرشيد خلال الحرب الكبرى ، فأكمل فتحه وبعد عقب انسحابهم ، وقامت الفنادق والمتاجر في جانبيه ، لانه كان الشارع الوجيد الذي يبلغ عرضه خمسة عشر متراً .

اما اليوم فقد شملت الشوارع العريضة معظم بساتين الكرادة جنوب بغداد القديمة ، وكثيراً من بساتين الاعظامية شمالها ، وأصبحت الشوارع

(١) الكرخ جزء بغداد الواقع غرب دجلة أبي في جهة الوداد او جهة الجوزة .
اما الطرف الثاني فيه الرصافة وهي معظم بغداد .

التي عرضها ١٥ متراً الى أربعين متراً تند بالمتربات ، كما بلغ ما بين طرفى المدينه ، من الكراده على مقرية من المدرسه العسكريه جنوباً ، الى معظم قيادة الكاظمية شمالاً ، نحو خمسة عشر كيلو متراً ، أي كما بين الروبة ودومة . لكن عمروان بغداد يبعد مع التهر ، ولا ينتمي كثيراً الى سائر الجهات .

وما استوقف نظرنا في بغداد كون عدد كبير من الشوارع الجديدة قد فتحت وبعدت وزفت وأثيرت قبل أن يبني كثير من الأبنية في جوانبها ، أي أن فتح الشارع سبق البناء ، وهذا دليل على حيوية أمانة العاصمة . وما يستوقف النظر أيضاً كون جميع الدور تبنى بالآجر لفقدان الحجر ، وكونها منها معظم فسيق قلما تزيد على طبقة واحدة تعلو الطبقة الأرضية . وقد سألت عن سبب ذلك فقيل لي أن حر الصيف (١) الشديد يضطر السكان الى أن يلتجأوا الى الأقباء في النهار ، والى السطوح في الليل ، وكلاهما لا يتيسر في الأبنية الكثيرة الطبقات ، عدا ان التربة حول دجلة لا تحمل ثقلات الأبنية .

وما يبلغ صدر العربي ان الشوارع سميت باسماء عربية ، وإن بعض الأسماء انما وضعت تنزيهاً بذكر رجالات العرب في القديم والحديث كالرشيد والمؤمن وفيصل وغازي والسودون والبحري وابي العتاهية وأبي تمام وغيرهم من لهم فضل على هذه الأمة في السياسة والعلم والأدب : وقد حظر على أصحاب المؤسسات العامة كالفنادق دور السينما والمcafes وأضرر بها أن يسموها باسماء أجنبيه ، كما حظر عليهم اعلانها بلغة أجنبية دون العربية .

(١) تزيد حرارة بغداد في الصيف على حرارة القاهرة ، وتتفق عنها في الشتاء وتتراوح أعلى درجة للحرارة في أشهر الصيف بين ٤٠ و ٤٩ درجة . وتبعد الحرارة في بعض أيام الشتاء الى ما دون الصفر . ومتوسط الحرارة السنوي في بغداد ٢٢،٨ درجة أي فوق متوسط القاهرة .

وشكل الدور الخارجي لا يظهر جلياً في المدينة القديمة لضيق الأزقة واكتفاظ الدور . ومن المعروف ان أصحاب الدور القديمة ما كانوا يتمون لشكلها الخارجي ؛ أما في الداخل فمعظم تلك الدور تتألف من قذاء مكشوف مربع او مستطيل تحيط به الغرف من جهة الأربع . ويكون وسط الفناء حدائق لازهر والشجر وحوض فيه ماء او لا ماء فيه . وهذا الوضع الداخلي هو ما نراه في الدور القديمة بدمشق وحلب وسائر المدن الشامية ، وهو أصلح ما يكون للمعادن الإسلامية ولبلاد الحارة . أما الأبنية التي تبني اليوم في بغداد على أطراف الشارع الجديد فلا يعرف لها طراز داخلي أو خارجي . وإذا استثنينا بناء وزارة الدفاع العربي الجليل ، وبناء وزارة الخارجية ، وبعض القصور والدور المائمه او المقاربه ، أمكننا القول بأن الفوضى خاربة أطاحتها في انماط البناء في بغداد الجديدة . ولمل ابشر الأبنية تلك التي على جانبي شارع الرشيد . فقد قامت فوق رصيف الشارع على أحمردة لا يدرى المره وهي رومانية او يونانية . وإذا ألمعت النظر في جهة بعض دور السينما او في قوشها الداخلية صوب عليك أن تحكم هل أنت في الهند او في إيران او أنت تحلم في أخيلة ألف ليلة وليلة . ولا شك أن فوضى البناء موجودة في الشام وجودها في العراق . وهي في البدن تحتاج الى ضابط .

ويربو سكان مدينة السلام اليوم (١) على أربعين ألف نسمة . وكانوا أيام الدولة العثمانية دون نصف هذا المدد . أما في إبان بجد هذه المدينة أيام الرشيد والمؤمن فكان سكانها مليوناً ونصفاً أو مليونين ، كما أن مساحة أبنيتها وحدائقها بلغت في تلك الأيام نحو خمسين كيلو متراً مربعاً ، نصفها في الرصافة ونصفها في الكرخ . ووسائل إلينا هذه لا تجعل مجالاً

(١) من المعلوم ان ذلك كان يوم إقام العاشره اي في اوائل سنه ١٩٤١

الخضرا، وقصر الخلد وقصر الذهب التي شادها المنصور ، وكدار القرار لرئيسة زوج الرشيد ، وكقصر الامين وقصور البرامكة وقصر التاج للمعتصم ، وقصور الامراء والوزراء مما أنفق عليه ملايين من الدنانير . ومن المؤسف أن الأيام قد طمست معالم هذه الأبنية العظيمة ، وذهبت بما كانت تحظى به من تقوش وزخارف وآثار فنية .

التعليم في العراق

كان في بغداد أيام الدولة العثمانية مدرسة حقوق فتحت في أواخر أيام تلك الدولة ، ومدرسة إعدادية ومدرسة عسكرية متوسطة وبضع مدارس ابتدائية . وكل هذه المدارس الحكومية كانت تدرس بالتركية ، ولم يكن للأجانب ولا للشعب العراقي مدارس خصوصية تذكر . وكان التعليم في مدارس الحكومة المذكورة موجهاً إلى إعداد فاشئة تتقن التركية وتتدرب بالجامعة العثمانية ، وتحتخدم إما في الجيش العثماني أو في وظائف الحكومة الثانوية . وكانت اللغة العربية لغة ثانوية تدرس بالتركية ، كما كانت القومية العربية تحارب من قبل المسلمين الأتراك والمتركين . وقد شملت هذه الوضاع يومياً سائر البلاد العربية . لكن المدارس الأجنبية والمدارس الاهلية كانت منتشرة في ديار الشام منذ أواخر القرن الماضي . ولذلك لم يكن مدارس الحكومة العثمانية كبير تأثير في تلك الديار ، كما أن الامية فيها لم تكن منتشرة انتشارها في العراق .

ويتبين من ذلك أن العراق عندما بدأ يعارض استقلاله وجد نفسه في حاجة قصوى إلى نشر التعليم على أنواعه ، وإلى توجيهه وجاهة القومية العربية الصحيحة . ولم يقصر الفائوت على شؤون العراق في الناحتين المذكورتين ففتحوا حتى سنة ١٩٣٥^(١) من المدارس الابتدائية

(١) عن كتاب زين بن هناء (وجاهة التربية والتعليم في العالم العربي وخاصة في العراق) الدكتور فاضل الجمالي مدير التدريس والتربية العام بوزارة المعارف العراقية . وللرواية فيه اختصاصي بشؤون التعليم معروفة بـ « المعلم والخنزير » .

٧٤٧ مدرسة بمجموع تلامذتها ٨٦٠٠٠ ، وقد بلغ عددهم ٩٠٠٠ في سنة ١٩٣٧ ، ولهم بلغوا اليوم مائة ألف ، و٧٤٧ مدرسة متوسطة ، الصنوف الأولى من الدراسة الثانوية ، بمجموع تلامذتها ٩٠٣٩ ، و١٤ مدرسة ثانوية ، الصنوف العليا من الدراسة الثانوية ، فيها ١٣٤٦ تلميذاً ، وأربع دور معلمين منها اثنان للذكور واثنان للإناث ، وكان فيها سنة ١٩٣٥ نحو ألف تلميذ وتلميذة ؟ أما اليوم فدار المعلمين في الرستمية وحدها فيها ألف تلميذ تقريباً . ودور المعلمين هذه على قسمين قسم لآخر معلمين يدرّسون في مدارس المدن الابتدائية وقسم لآخر معلمين يدرّسون في مدارس الريف الـأولـية .

وفتح أيضاً في بغداد مدرسة للبنات تدرس الفنون المزالية والأشغال اليدوية ، وفتح في الموصل مدرسة مثلكما . أما التعليم العالي فقد فتح له معهد لحقوق ، ودار معلمين علياً تخرج أساندته المدارس المتوسطة ، ومعهد لطب والصيدلة . وأعتقد أنه صار بإمكان وزارة المعارف اليوم أن تجدها في جامعة تمنع استقلالاً إدارياً وماياً .

وأما المدارس الفنية فقد أسس منها مدرسة عسكرية ومدرسة للهندسة ومدرسة لشرطة وأخرى لضبط الشرطة وواحدة للطيران . وأوُجِدَت في محمد الطب مدرسة الممرضات والقابلات وأخرى لوظيفي الصحة ، كما أوُجِدَت صنوف تجارية في بعض المدارس التجريبية . وفتحت مدرسة صناعية في بغداد ومدرسة في الموصل . وكانت فتحت مدرسة زراعية في الرستمية ثم أغلقت على أن ترسل بعثات مدرسية تعلم الفنون الزراعية في مصر وكيفيرنيا وغيرها من البلاد التي تشبه العراق بجوارها .

ويتبين من هذه الخلاصة الموجزة أن هناك جهداً عظيماً بذل في سبيل التعليم في السنوات القليلة التي مارس فيها العراق استقلاله . ولا شك أن مجال العمل ما يزال واسعاً . ولكنه ما دام العزم موجوداً والتوجيه حسناً والمآل متيسرًّا فلن يمر بضع سنوات حتى يصبح العراق في مستوى مصر

والشام بل حتى يفوقها في بعض فوائج التعليم . وما يستوقف النظر كون وزارة المعارف العراقية لم تأتِ من استدعاء معلمين شاميين ومصريين وبريطانيين للتدريس في مدارسها المختلفة ، وهذا ما يفعله كل شعب ناهض في بده نهضته . وسيستغنى العراق عن هؤلاء المعلمين رويداً بازدياد التخرجين من دور المعلمين والمعلمات العراقية وازدياد العراقيين الذين ينخرجون في كل سنة من جامعات ديار الشام وديار الغرب .

ولقد زرت عدة مدارس في بغداد ، ودخلت الصفوف ، واستمعت إلى إلقاء الأئمذ والمعلمين ، وسألت بعض التلاميذ أسئلة في علوم مختلفة ، وخرجت وإنما لأن التعليم في العراق على أنواعه سائر سيراً يدعو إلى اغبطة القائمين عليه . ولقد استوقف نظاري كون التعليم مشتركاً بين الذكور والإناث في بعض المدارس العليا كالطب والحقوق ودار المعلمين العليا ، وكون عدد الطالبات ليس قليلاً في المدارس المذكورة . وإذا جوزت لنفي الافتقاد فإن إناثاً مدرسة الحقوق وأبنية المدرسة العسكرية لا تهان على ما لها من شأن . فمن المفيد أن يوسع عليها في تشيد الأبنية المناسبة كما وسع على مدرسة الطب ومدرسة الهندسة ودور المعلمين وغيرها من المدارس التي شيد لها أبنية حسنة .

والمربيه هي لغة التعليم في مدارس الحكومة العراقية ، عدا مدرستي الطب والهندسة ، فإن معظم الدروس فيها تلقى باللغة الإنجليزية . وهذه اللغة تدرس تدريساً حسناً في مدارس العراق . ويلاحظ أن عدد المثقفين تقافة انكليزية يفوق كثيراً عدد المثقفين تقافة لاتينية . والمدارس الأهلية قليلة في العراق ، لا تزيد على سبعين مدرسة فيها نحو عشرين ألف تلميذ . أما المدارس الأجنبية فهي اثنتا عشرة مدرسة تضم ألف تلميذ . ويدل ذلك على أن الدولة هي التي تسيطر في مدارسها على تعلم الأحداث وعلى تربيتهم وعلى توجيههم وجهة واحدة . وهذه الوجهة تستهدف الاحتفاظ بتراث العرب الأدبي والروحي ، واقتباس المفید من علوم الغربيين وأساليبهم

العلمية ووسائلهم المادية . أما المبادىء القومية فهي تثبت في جميع مدارس الدولة على شكل يدعوه إلى الارتياح .

وحكومة العراق مهتمة بكل الاهتمام بنشر المعرف في جميع أنحاء الفطر ، ولا سيما التعليم الابتدائي ، حتى أن ميزانية وزارة المعارف تربوّ اليوم على مائة ألف دينار ، وهو مبلغ لا يستهان به في قطّر لا يزيد سكانه على أربعة ملايين نسمة ونيف . ومع هذا ما يرجح أمام الحكومة مجال واسع لنشر التعليم الابتدائي خاصة لأن تلاميذه المدارس الابتدائية وتلميذاتها لا يبلغون جمّعاً ربع الأولاد الذين هم في سن التحصيل الابتدائي . وتلائمة أربعاء الأحداث أو أكثر يليثون أميين . لكنه يلاحظ كون نشر التعليم رباعاً أدى إلى ازدياد البطالة والشكوى إذا لم يكن مقروراً بجهد كبير يبذل في سبيل إيجاد عمل للمتعلمين على مختلف درجاتهم . خير يجو المدارس العليا والمدارس الثانوية يجدون اليوم عملاً في الحكومة والجيش والمعامل الحرة كالتطبيب والخاتمة . لكن خريجي المدارس المتوسطة وخربي المدارس الابتدائية من أبناء القصبات والقرى لا يجدون أمامهم متسعاً من المتاجر والمعامل والأرض . فاتجارة معظمها يد اليهود (١) . والارض الزراعية يملكونها أفراد معدودون . والمعامل الصناعية قبلة . فالنفقة الثقافية في العراق يجب إذن أن تقتصر بنسبة اقتصادية قوامها الرى والإيجاد الملكية الصغيرة في الأرض الزراعية وتأسيس المعامل الصناعية ونقل المتاجر إلى مختلف طبقات الشعب فلا تظل محبوسة على اليهود . وهكذا يجد المتعلمون أبواب الرزق مفتوحة فيستفيدون ويفيدون بما قرأوه في المدارس من مبادىء العلوم .

(١) لقد سهلت حكومات العراق أخيراً هجرة يهود الفطر ، فهاجر معظمهم إلى فلسطين ، على ما هو معروف .

نظرة اقتصادية

اما جداول الاصقاء سيعجاً فهـي تكفي لاسقاء نحو ثلاثة ملايين وسبعين
الف هكتار . وأهم هذه الاراضي تروى اولاً بسبـب إقامة سد المندية
على الفرات في اواخر أيام الدولة العثمانية على يد المهندس الماني الشهير
ويلكوكس الانكليزي . وقد امـكـن بهذا السـد اـبرـواـه أـرـضـيـنـ وـاسـعـةـ في
الوـبـةـ الحـلـةـ وـكـرـبـلاـ وـالـدـيـوـانـيـةـ . ثـانـيـاـ بـسـبـبـ اـقـامـةـ سـدـ الكـوتـ «ـمـشـروعـ
الـغـرـافـ»ـ عـلـىـ دـجـلـةـ منـ قـبـلـ حـكـوـمـةـ عـرـاقـ أـخـيـراـ . وـهـذـاـ سـدـ يـضـمـنـ
إـسـقاـءـ سـبـعـاـتـ وـخـمـسـيـنـ الفـ هـكـتـارـ فيـ لـوـاءـ الـكـوتـ وـلـوـاءـ الـعـمـارـةـ . ثـانـيـاـ
بـسـبـبـ اـقـامـةـ سـدـ عـلـىـ نـهـرـ دـيـالـةـ . وبـهـذـاـ سـدـ اـمـكـنـ تـنظـيمـ تـوزـيعـ المـاـءـ
فـيـ جـدـاـوـلـ النـهـرـ الـقـدـيـعـةـ . رـابـعـاـ بـسـبـبـ المـدـ وـالـجـزـرـ فـيـ شـطـ الـعـرـبـ .
فـكـلـاـ حـصـلـ مـدـ يـرـتفـعـ اـلـاـ وـيـنـسـابـ فـيـ جـدـاـوـلـ إـسـقاـءـ التـخـيلـ بلاـ مشـفـةـ .
وـهـذـهـ الـجـدـاـوـلـ اوـ الـأـنـهـارـ مـعـظـمـهاـ قـدـيـعـةـ . وـقـدـ فـتـحـ أـجـدـادـنـاـ الـعـرـبـ مـثـانـ
مـنـهـاـ . وـنـخـيـلـ جـنـوـيـ الـعـرـاقـ يـشـرـبـ بـهـذـهـ الـعـلـيـقـةـ السـلـهـ خـامـساـ بـسـبـبـ
كـرـيـ أـنـهـارـ قـدـيـعـةـ فـيـ لـوـاءـ بـغـدـادـ وـالـدـلـيـمـ تـأـخـذـ المـاـءـ أـيـامـ الـفـيـضـانـ مـنـ
الـفـرـاتـ وـتـسـيـرـ بـهـ فـيـ اـتـجـاهـ دـجـلـةـ أـيـيـاـ إـلـىـ الشـرـقـ . وـقـدـ فـتـحـ الـحـكـوـمـةـ
حـدـيـثـاـ بـمـضـ الـأـنـهـارـ الـقـدـيـعـةـ فـيـ تـلـكـ الـبـقـعـةـ كـنـهـرـ الـطـيـفـ وـنـهـرـ أـيـيـ

وَمِنْهَا يُكَلِّنُ مِنْ أَمْرِ الْأَسْقَاءِ فِي الْعَرَاقِ فَهَذَا لِكَ حَقِيقَتَانِ يَجِبُ ذِكْرُهَا
الْأَوْلِيَّ إِنَّهُ لَا يَرَى فِي الْعَرَاقِ مَتَّعٌ لِأَعْمَالِ الْأَسْقَاءِ ، وَلَا يَرَى قَمَ
كَبِيرًا مِنَ السَّوَادِ غَيْرَ مَسْقَى . وَأَهْمَّ الْمَشَارِيعِ الَّتِي تَسْتَوِفُ النَّظرَ مُشْرُوع
الْحَبَانِيَّةُ الَّذِي أَشَرَتْ إِلَيْهِ وَمُشْرُوعُ نَهْرِ الْأَسْحَاقِ " وَدِجَبَلُ عَلَى دَجَلَةَ ،
وَمُشْرُوعُ الْحَوَيْجَةِ بَيْنِ الزَّابِ الْأَشْفَلِ وَدَجَلَةَ ، وَمُشْرُوعُ النَّهْرَوَانِ الْأَخِ .
وَكُلُّ هَذِهِ الْأَنْهَارِ وَالْمَدَاوِلِ الْقَدِيمَةِ مُعْرَوَّفَةٌ فِي تَارِيخِ الْأَرْبَابِ . وَالْحَقِيقَةُ
الثَّانِيَّةُ أَنَّهُ لَا يَرَى سَنْوِيَاً فِي الْعَرَاقِ الْيَوْمَ سَوْيِ قَسْمٍ مِنَ الْأَرَاعِيِّ الَّتِي تَسْقَى سِيقَامًا
أَوْ بِالْمَطَرِ . وَالْسَّبِيلُ قَلَّةُ السُّكَانِ وَقَلَّةُ رُؤُوسِ الْمَالِ . وَلَوْ أَنْجَزَتِ الْحُكُومَةُ
شَيْئًا مِنَ الْمَشَارِيعِ الَّتِي ذُكِرْتُهَا لَا وَجَدَتْ عَرَاقِيَّينَ يَسْتَمِرُونَهَا . وَيَنْفَعُ

من المفيد ان نذكر كلة موجزة عن الحياة الاقتصادية في العراق
نأيداً رأينا في ضرورة جعل النهضة الاقتصادية تسير مع النهضة الثقافية
جنياً الى جنب . مساحة العراق ٥٦٥٠٠٠ كيلو متر مربع (١) وسكانه
أربعة ملايين نسمة ونصف ، فيصل الكيلو متر المربع الواحد سبعة أشخاص
وهو قليل ؟ اذا قابينا بين العراق والشام نجد أن مساحة الاول تكاد
تلغ ضعفي مساحة الثاني ، أي ضعفي مساحة سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي
الأردن جيناً . وبينما في العراق أربعة ملايين نسمة في الشام خمسة ملايين
 عربي ونحو نصف مليون يهودي وأجني . ولكن شتان ما بين قابلية
العراق وقابلية الشام للاسكان . فالعراق كما هو معروف مؤلف من جزأين ،
جزء في الشمال أراضيه الزراعية أعداء ، أي تزرع على المطر ، كالنوبة
الموصل وكركوت وأرييل والسليمانية ، وجزء في الوسط والجنوب لا يمكن
زرع أراضيه إلا بالاسفاف لقلة الامطار . وهو يمتد من جنوب الموصل
حتى البصرة ، أي يتناول معظم الواجهة العراقية . وفي هذا الجزء الثاني
الصحراوي أنهار تخترق أراضيه وهي دجلة والفرات والزاب الاكبر والزاب
الأسف وديالة وغيرها من الانهار الكبار والمتوسطة . والارض الزراعية
تسق هناك على شكلين اما برفع الماء بالمحركات والتواعير والمزفات «كردة»
وامثلها من الوسائل ، وإما بالاقامة سدود في وجه الماء وفتح أنهار وحداول
للاستفادة . فوسائل الرفع تسقي اليوم مليونا ومائة الف هكتار تقريراً (٢)

(١) عن الكتاب الفرنسي «جغرافية سوريا ولبنان والشرق الأدنى» المطبوع سنة ١٩٤٠ مؤلفه دو بيرتره Dubertret وفولرس Weulersse أما في كتاب «المحة العامة للأندلس»

(٢) من اراد الحصول على معلومات وافية ومفصلة في هذا الباب عليه براجعة كتاب «جغرافية العراق» للطبعون سنة ١٩٣٧ لرجل الدولة العالم والمعيد الركن طه الهاتشي رئيس الوزارة ووزير الدفاع في العراق.

من ذلك أن في العراق مجالاً هجرة الفلاحين والأموال العربية بقيمة استهلاك الأرض ، وإن في ذلك القطر متسعًا خمسة عشر مليون نسمة في المستقبل القريب إذا سير في شؤون المиграة والصحة والاقتصاد على سياسة حكمة .

وليس الزي رزة العراق الوحيدة بل فيه النفط والغاز وهو من أعظم الثروات ومن أداتها إلى انتشار مختلف الصناعات . وقد زاد في أيامنا هذه ما يستخرج من النفط سنويًا على أربعة ملايين طن . ولائحة كانت الزراعة أم ركن من أركان الحياة الاقتصادية في العراق ، لأن هلاة أرباع سكانه يشتغلون في الزراعة ، فالمصناعة فيه مستقبل لا يستهان به بسبب وفرة النفط ومشتقاته خاصة . وقد أسس حديثاً معمل للفوز والنسيج في بغداد ، وأخر في الموصل ، ومعمل للحاجة للأقطان ، وأخر لتفطير الكحول ، ومعامل للدجاجة ولصباغ الأسلحة والطيارات وصنع الكبريت والأجر ونوايد الكهرباء ولصباغ السيارات الخ . وذلك عدا المنتوجات اليدوية الكثيرة من نسج وصياغة وتجارة وغيرها مما عرف القطر به . وقد أثبتت الاحصاءات الأخيرة ولا سما احصاءات سنة ١٩٣٧ ، أن العراق استورد ما قيمته تسعة ملايين دينار ، وأصدر ما قيمته خمسة ملايين دينار وثلث . أما اليوم فالفرق بين ثمن الوارد وثمن الصادر قد قلل ولا يبعد أن يحصل التوازن عمما قريب .

أماكن العراق المقدسة

٣٤٩
مصطاف الشاهي

الحسين السبط ومرقد أخيه العباس ، وسامراء وفيها الجامع الذي يضم ضريح الهاادي علي بن محمد الجواد « أبي الحسن العسكري » ، غائب الائمة وضريح ابن الحسن الخالص وهو الامام الحادي عشر . وفي جانب هذا البناء الجامع المحتوي على سرداد الغيبة أي غيبة المهدى محمد بن الحسن الخالص وهو آخر الائمة الائمه عشر ، وفي هذا السرداد باب خشي جيل جداً صنع بأمر الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٦٠٦ من المجرة . وما زرناه مسجد الكوفة وهو من أقدم المساجد في الإسلام اخترقه سعد ابن أبي وقاص أثناء تنصير الكوفة . وكان الامام علي يصلى فيه ، وقد تجدد في خلافة الامويين ، وظل عامراً قرونًا .

وأقرب الأضرحة إلى بغداد هي زيارة مقام الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ، وهو في ضاحية بغداد على نحو غائية كيلو مترات شمال قلب المدينة . وقباته في جهة الرصافة مقام الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت أحد الائمة الأربع .

والجوامع التي فيها مقامات سيدنا علي وآله في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء كلها حديثة ومبنية على طراز واحد . فالزار يرى صحنًا عظيماً مربماً أو مستطيلاً أحبيط بجدران شاهقة كسبت داخلياً بالفاشاني . وفي وسط الصحن مسجد تملوه قبة أو أكثر ، وفي أركانه المآذن ، ومقامات الائمة تحت القباب . وما لا مرأة فيه أن هذه المقامات المقدسة قد اشتملت على كنوز عظيمة ، فالقباب مثلاً وبعض المآذن مكسوة خارجياً بصفائح رقاق من الذهب ثمن كل واحدة منها بقدر الكف آية ذهبية عثمانية . وشاهدنا بعض جدران المساجد أيضاً مصفحة بالذهب . أما الأقباس التي تحيط بالأضرحة فمعظمها من فضة وبعضاً مطلية بالذهب . وكثير من الثريات والقناديل والسلال إما من فضة أو من ذهب خالص أو مطلية بالذهب . وفوق ضريح الامام علي ثريا فيها درة ثمينة . وأرانا شيخ المقام الكريم في النجف عدداً من السجادات والستائر

لا شيء أدعى إلى التأمل والاعتبار والخشوع من زيارة أضرحة سيدنا علي كرم الله وجهه وبعض أئمته الائمة رضوان الله عليهم ، وزيارة بعض الجوامع القديمة التي تثير في النفس ذكريات كثيرة من تاريخنا العريق . ولقد تفضل العلامة السيد ساطع الحصري فكان خير مرشد لنا في الت berk زيارة النجف حيث مقام الامام علي ، وكربلاء حيث مقام

وقد اذربى عظامها هدايا من أبناء الملوك الفارسية او بناتها . وبعض السجادات مرصعة باللآلئ منها الصحيحة ومنها الكاذبة . وأشار الشيخ الى أحد جدران المسجد وذكر أنه يشتمل في داخله على كنز من الجوائز القديمة يقدرون ثمنها بما لا يقل عن مليون ليرة ذهبية . وقال إن الجدار لا يفتح اليوم إلا بارادة ملوكية ، وأنه فتح مرة أيام أولي العثماني الشهير مدحه باشا ، ومرة أيام الملك فضيل بن الحسين طيب الله ثراه .

وداخل المساجد والقباب مكسو بالقاشاني وقطع البلور والمرايا . وقد كتبت آيات قرآنية على عدد كبير من قطع القاشاني ، ورسم على بعضها رسوم مختلفة . ومن أغرب ما استوقف نظري في مدخل الجامع الذي يشتمل على ضريح العباس في كربلاه أن الرسوم التي على بعض قطع القاشاني هي رسوم أوروبية ، مما يدل على أن تلك القطع قد شرئت من معامل لآخر في أوروبا ، على حين أن معظم القطع الأخرى هي من صنع فارس وغيرها من الديار الإسلامية . وبها يكن من أمر القاشاني فلا شك أن معظمها حديث لا يتجاوز عهد الصفوين والفارسية ، ولهذا ليس له رونق القاشاني القديم .

ورووعة هذه الأماكن ليست في أبنيتها ولا في كنوزها ولا في أوقافها القديمة بل فيما يحيطها من رفات أئمة هداة أتقياء صالحاء لهم في تاريخ العرب والاسلام وفي قلوب المسلمين جميعاً مقام أي مقام . ومن المعروف أنه يحج إليها عشرات الآلاف من المسلمين في كل سنة . ولكن عدد الحجاج الارمنيين قد قلل في السنوات الأخيرة كما فلت الأموال التي كانت تخصها بها الدولة الارمنية . وأعلمك من المفید ذكر ملاحظتين ترددان على السنة كل من يغار على الأماكن المشار إليها ، أولاهما ضرورة منع الأكل والتدخين في سجون الجواجم ، وإخراج الذين لا عمل لهم منها ، ولا سيما الأولاد والأطفال ، وثانيةهما تأسيس متحف خصوصي ملاصق لجامع النجف تحفظ فيه التحف والكنوز الموضعية في بعض المعرف وفي أحد

الجدران ، فإن هذه الموضع تحملها عرضة لبعث الحرارات والتأثيرات العوامل الطبيعية فيها ، على حين أن المتحف يجعلها في مأمن من التلف ، وبضمن المقام الشريف مورداً لا يستهان به .

أما مسجد الكوفة فلم يبق منه إلا صحن العظيم تحيط به جدرانه الشاهقة وأمامها أروقة بسيطة حديثة . وفي أحد الأروقة عند المحراب قاشاني حديث يستوقف النظر . وهذا المكان هو الذي طعن فيه الإمام علي بيد ابن ملجم عنه الله . وفي أحد جوانب المسجد أقيم مصلى جديد صغير رأينا الناس يتبركون به ويصلون فيه . ولا شك أن مسجد الكوفة ، على سعة صحنها وبساطة ما تبقى منه ، يثير في نفس المسلم ذكريات تاريخية مشجية . وعندما يبلغ الزائر هذا المسجد قبيل الغروب ، وهي الساعة التي بلغناها فيها ، ويدخل صحن العظيم الذي كان يتسع لآلاف المسلمين ، يشعر بخشوع زائد إمام روعة هذه البقعة الفردوسية ، ولا سيما إذا كان ملماً بتاريخ صدر الاسلام .

الآثار في العراق

من المعروف في التاريخ أن أقدم حضارة شريرة كانت في موضعين متباينين : الأول سقي الفرات الأسفل والوسط حيث كان السومريون والاكيون ، والثاني غربي إيران حيث كان العيلاميون . وترجع حضارة هذه الأقوام إلى نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، أي أنها قامت قبل حضارة الفراعنة الأول ببضعة قرون^(١) ، ولم يكن السومريون ساميين . أما الاكيون فقد كانوا ساميين من جزيرة العرب ، وكذا سائر الأقوام الذين قذفت بهم تلك الجزيرة الائمة إلى الهلال الخصيب في موجات

(١) من أراد الإطلاع على مجلدين من حضارات البشر الأولى عليه بطالعة كتاب « التاريخ والحضارة في الأزمنة القديمة » تأليف السيد ابراهيم البهبهاني . وهو مطبوع في بغداد .

متقدمة ، كالمورين الذين سكناوا بادية الشام وجنوب فلسطين ، ثم دخلوا العراق واستولوا على بلاد السومريين والاكدية ، وأسسوا دولة بابل ، واشتهر قبهم حمورابي صاحب الشريعة المدونة على مسلته المعروفة . وكالاشوريين أبناء عم البابيليين ، وقد عرفوا بالحروب والفتح والقسوة ، ولم يؤسروا مدينة خاصة لهم . وكالآراميين الذين سكناوا على ضفاف الفرات والخابور ، وأسسوا دولات في دمشق وحلب وحران وحماء . وكان كلدانيين الذين حكوا بلاد بابل بعد زوال دولة الاشوريين وكانت منهم يختصر « بوخور أصر » صاحب الحدائق المعلقة في بابل . وكالفينيقين الذين توانوا سواحل الشام الشهادية ؛ والكنعانيين الذين سكناوا سواحلها الجنوبية ؛ والاساعيليين الذين أسسوا دولاً في مشارف الشام ولا سيما دولة سلم « البطرا » في وادي موسى ومدائن صالح ، دع الملك الذي كان للمرأة قبل الاسلام في الحيرة « جنوبى النجف » ، وفي حوران وغيرها من أصقاع الهلال الخصيب .

واما لا مرية فيه أن أعظم موجة قذفتها جزيرة العرب هي الموجة الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . فقد خلص الهلال الخصيب العرب عقب تلك الموجة المباركة . وقامت في أيام الامويين والعباسيين خاصة حضارة عربية راهنة لا تزال آثارها آتشية بمعظمها في جميع الاقطار العربية .

وأنم الآثار العربية التي شاهدناها في العراق آثار مدينة سامراء « سر من رأى » على بعد ١٤٠ كيلو متراً شمالي بغداد (١) وهي المدينة التي بناها الخليفة المنصور أحد أبناء هرون الرشيد سنة ٢٢١ من الهجرة ليجعلها عاصمة لملكته ، ثم وسعا ابنه الواثق ، ثم ابلغها أوج عظمتها جعفر

(١) لقد قال العلامة السيد ساجع المصري مدير الآثار القديمة في العراق نضل اطلعنا على ام الآثار والتحف وتزويدنا بما طبعه فيها من كتب وكراريس مصورة لينة .

مضطفي الشهابي

٤٥٣

المتوكل . ولم تدم هذه المدينة السحرية إلا نصف قرن أو أقل لأن مقر الخليفة أعيد إلى بغداد فدرست سامراء بسرعة كما أوجدت بسرعة . وبعد أن كان الناس يسمونها « سر من رأى » ساروا يسمونها « ساء من رأى » . ولكي تعرفوا عظمة الأجداد إبات مدنهم الراهنة ، تصوروا مدينة طول أطلاها الحاضرة ٤٣ كيلو متراً ، ينصفها شارع عرضه مائة متراً ، يظل مستقيماً على طول سبعة كيلو مترات ، وتنفرع منه شوارع عرضانية مستقيمة عديدة يبلغ عرض كثيرة منها ٥٠ متراً . وقد قالت الدور والقصور على خطوط مستقيمة حول هذه الشوارع ، حتى أن الناظر إليها من طيارة يظن أنه فوق أطلاع أحدث مدينة أوربية أو أميركية . والذي ينعم النظر في الآثار الباقيه من تلك المدينة كالمسجد الجامع والمئذنة الملوية وجامع أبي دلف وقصر بلکوارا ودار الخليفة وباب العامة وقصر المشرق وغيرها كثير ، لا يستغرب الوصف الذي وصفها به اليقoubi في كتاب البلدان ، ولا تعاظمه ملامين الدنائير التي انفقها الخلفاء المشار إليها ووزراؤهم وقوادهم في جلب الماء من دجلة إلى المدينة الجديدة وفي تشييد القصور التي وصف على ابن الجهم أحدها بقوله :

بدائع لم ترها فارسٌ ولا الرومٌ في طول أعمارها
صحون تsofar فيها العيون وتحتسر عن يمئذ أقطارها
وقدْ ملكَ كان النجو متفقى إليها بأسرارها (١)

وقد شاهدنا آثار البركة العظيمة أمام باب العامة من الفخر المعمي « سر من رأى » على بعد ١٤٠ كيلو متراً شمالي بغداد (١) وهي المدينة التي بناها الخليفة المنصور أحد أبناء هرون الرشيد سنة ٢٢١ من الهجرة ليجعلها عاصمة لملكته ، ثم وسعا ابنه الواثق ، ثم ابلغها أوج عظمتها جعفر

(١) صحة روایة الأبيات من دیوان علی بن الجهم تتحقق العلامة خليل مردم بك

رئيس المجمع العربي .
معا (٢٣)

تذهب فيها وفود الماء معجلة
كأنها الفضة البيضاء سائلة
اذاعتني الصبا أيدت لها حسناً
خاجب الشمس أحياناً يصاحكمها
إذا النجوم رأت في جوانبها
لا يلعن السمك الحصور غائبتها
والقصيدة طويلة فيها أجمل وصف املاك البركة التي يلعن طول كل ضلع
من أضلاعها الاربعة ١٢٥ متراً . وشاهدنا أيضاً مضماراً لسباق الخيل على
شكل مبتكر وهو اجتماع أربع حلقات أو دوائر متقابلة حول مربع
مركزي . فانخلقية ورجاله كانوا يجلسون في ذلك المربع ، والخيل تجري
في الحلقات فتبعد عن المركز سبعة متراً ثم تقترب منه وهكذا أربع مرات
دون أن تغيب عن النظر . وطول المضمار الذي تقطعه خمسة
كيلو مترات تقريباً .

و لما استوقف نظرنا في دار الخليفة حفرة كبيرة مربعة الشكل منقرفة
في الحجر في عمق عشرة أمتار وفي وسطها حوض لاسباحة ، وفي كل
جانب من جوانبها الاربعة ثلاثة أبواب لا تزال زخارف الجص على
بعضها ، ولا شك أن هذه الحفرة التي تفدينا فيها مع عدد من الصحابة (١)
كانت معدة للتبريد أيام الحر شأنها شأن السراديب التي تكثر في العراق
ولا سبأ في النجف .

ومن دواعي الالسف أنه بعد انتقال دار الخلافة الى بغداد تحظف
الناس ما حوتة سامراء من رخام ومرمر وآجر وفسيفساء . لكنه لم يث
فيها كثير من زخارف الجص الذي كان يلتصق على جدران البيوت . وهذه
الزخارف وما فيها من تزاوج وتحاريم وتعاريف ببعضها هندسي وبعضها نباتي

(١) م السادة سعد الله الجابري ، ولطفي المختار ، وسامط الماهري .

الشكل هي من أسطيع الادلة على عظمة تلك المدينة . وقد ملأت جانباً
كبيراً من متحف الآثار العربية في بغداد . وهي أجمل من زخارف قصر
الخير التي نقلت الى دمشق لكنها أحدث منها . وبين قصر الخبر وسامراء
قرن ونيف .

ولم تبق الأيام في بغداد على قصور العباسيين التي طالما فرنا عن سمعنا
وعظامها ونقوشها وزخارفها في كتبنا التاريخية . والقصر الوحيد الذي ابى
جزء صغير منه قائماً بنا . أسميه العامة « قصر المأمون » ، وهو في الحقيقة
يرجع الى أواخر عهد العباسيين . وفي هذا القصر زخارف بد菊花ة جداً
من قطع الأجر الحفور والمنقوش على أشكال هندسية او بنائية . وقد
اختذ قسم منه متحفاماً لذكرى فيصل الأول ، وقسم اخذاً معرضًا لصور
الآثار العربية في أنحاء الأرض بغية تنمية ذوق الزيارة « فن البناء » على
الطراز العربي الجميل .

ومن الآثار العربية التي زرناها في بغداد ، بدلالة الاستاذ الأثري
السيد عبد الرزاق أمين المتحف العراقي ، المدرسة المستنصرية الشهيرة التي
بنانا المستنصر بالله العباسي في أوائل القرن السابع من الهجرة . وهي
متخذة دائرة مكوس بغداد منذ أيام الدولة العثمانية . وقد بني السكان
أبنية ودكاكين كثيرة على قسم من بقاياها . وأجمل ما تبقى من زخارفها
براء المرء على طاق إيوان كان أحد السوقه جاعلاً إياه فرناً للخزب
و« الكعك » الى عهد قريب .

ومن آثار العباسيين باب خراسان ، والبرج الذي يسمى « البرج
الوطاطني » ، وقد اتخداليوم متحفاماً لأسلحة . وهو من أبواب سور
بغداد ولا بد من رحل إلى عاصمة العراق من مشاهدة مأدنة سوق
الغزل لقدمها « القرن السابع من الهجرة » وارتفاعها ، والجامع الذي
يرقد فيه الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وجامع الجدر خاتمة حيث كانت

يحيى الشعب في الحوادث السياسية المأمة . وقباب معظم جوامع بغداد مكسوة بالقاشاني البديع .

ومن الابنية القديمة في بغداد خان مرجان وهو بناء عريض جميل بني في القرن الثامن من المهرة وأصلح حديثاً واتخذ متحفًا للآثار العربية . وأهم محتواه الزخارف الجصية الفتامة التي نقلت من سامراء . وقد علق على جدرانه صور وخرائط عديدة مفيدة ، كما أن بعض غرفه قد اشتغلت على أضرحة ومحاريب وأبواب خشبية وأوان من خمار وأوان من نحاس ومقدار من التقويد القديمة .

ولم تتمكن من زيارة الآثار التي بقيت من مدينة سومر وأكاد وأشور ، لكننا زرنا بابل الشهيرة وهي تقع على ٩٥ كيلو متراً جنوبي بغداد . وأطلالها الباقي لا يرجع إلى أيام الأكديين ، ولا إلى عهد العموريين الذين منهم حمورابي ، بل ترجع إلى أحدث من أيام تلك الدول ، أي إلى أيام الدولة الكلدانية التي عاشت في الآلف الأول قبل الميلاد . وكان منها نيوپولاس وبحتنصر الثاني ، ٦٠٤ - ٥٦١ ق . م ، ولم تبق حوادث الدهر إلا دعماً من قصور بابل وأسوارها وبرجها وحدائقها المعلقة وأهم ما فيها الأسد البافلي ، وهو تمثال أسد فائم فوق رجل مدد ، وكلامها من صخر أصم ، وما فيها أيضاً باب اشتار وما على جدرانه من أسود وثيران وتنانين مفتاة بالميناء . وقد بنت مديرية الآثار متحفًا صغيراً في خرائب بابل حوى صورات جميلة لما كانت عليه تلك المدينة في أيامها السالفة .

ولا بد من يعني الاطلاع على آثار أقدم مدينة عرفها البشر ، من زيارة المتحف العراقي في بغداد . في هذا المتحف من نفائس مدINETات سومر وأكاد وبابل ما يسر النظر . فكثير منها يرجع عهده إلى الآلف الرابع والآلف الثالث قبل الميلاد . وقد كانوا في تلك الأيام السجدة يقتلون في الحجر والنحاس ، ويصنعون التأليل والفسفساء ، ويصوغون

الذهب والفضة حلياً وعائلاً جليلة ، وينزلون فيها حجارة كبريتة . وكان النساء يترنّ ويتبرجن كما في أيام الناس هذه . وما استوقف نظارتنا معزف خشي محل بالذهب والصدف واللازورد وجد في المقبرة الملكية في أور ، وخوذة من الذهب الخالص عليها نقش تحبط بالشعر ، وعدد كبير من الخلي على أشكال شقى كالقراءات والخواتم والقلائد كلها من ذهب ، وكثير منها مرصع بالإنجارات الكبريتة ، وبمجموعة من الاختام ومن الخارج الذهبية ، وأحد الاختاجر له غمد من ذهب مزخرف الخ . وفي الحقيقة أن نفائس المتحف العراقي شيء كثير . ومن الصعب تصوير صورة لهذه النفائس في معاشرتنا هذه . وحسبنا أننا ألمينا بها إلاماً .

* * *

نهاية العراق الحديثة

لعل أهم ما في العراق استقلاله وخلوه من جيش أجنبى إلا في مطارات . فقد قفت معاهدته الأخيرة مع إنكلترا ، وهي المؤرخة في ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٠ ، بأن لا يكون لها فيه سوى مطارات ببعدين عن المدن ، الواحد في سن الذبان ، بين الرمادة والفلوجة غرب الفرات والثاني في إحدى جهات البصرة ، وما يسمى الإنسان في الوزارات وفي الجيش العراقي وفي القوة الجوية الملكية وفي الشرطة وفي المدارس وفي سائر دوائر الحكومة أن السلطة فيها لابناء العراق دون سواهم ، ولهذا يستطيع المرأة أن يجزم أن العراق يمارس السيادة بين الداخلة والخارجية شأنه في ذلك شأن البلاد المستقلة . والمستشارون البريطانيون ، على ما قيل لي معلومون يرشدون إذا استنبروا ولا سلطة تنفيذية لهم ، ولهذا يطابق اسمهم المسعي ، والقضاء الإنكليزي الذين قفت المعاهدة بوجودهم يتقنون العربية ، ولذلك تكون المرافقة أمامهم بلسان العداد . والسفارة الانكليزية في بغداد لا تتم بغير ما ورد في المعاهدة

من مصالح بريطانيا الجوهريّة . ولو أرادت التدخل في شؤون العراق الداخلية لتها عن ذلك قوة شكيمة العراقيين . ومن المعروف أن الانكليز يمت قبّع في برجه العاجي فهو لا يزعج نفسه إلا إذا "مست" مصالح أمبراطوريته الحيوية بسوء وفي هذه الحال يكون له تدخلات وتمرارات عجيبة . وعارة الاستقلال أوجدت في العراق رهطاً من رجال السياسة ورجال الدولة ومدربي الدوائر الحكومية من ترسوا بالاعمال الداخلية والخارجية وتملوا تحمل ثبات الأمور الجسام . وقد كانت الأعمال الحكومية في بادئ الأمر تقع على عاتق الفنادق الأشتوس الذين اشتراكوا في الثورة العربية في الحرب الماضية . وما برح الأحياء من هؤلاء السادة يعدون في طليعة رجال الدولة العراقية . لكنه لشأ اليوم عدد من الشبان والكهول الخلقين من برهنوا على ذكاء وكفاية في تصريف شؤون الحكومة . وأعتقد أن العراق ببني المستقبل في هذه الناحية الهامة من نواحي النهضة ، ويتحذّل الوسائل التي تأتيه للقطع في مستقبله البعيد رجال دولة قدرين خلصين .

وقد استقرت الأوضاع السياسية في العراق منذ أيام الملك فيصل على شكل دولة ملكية دستورية ثابتة الأركان . والنف الجموع حول فيصل وذراته ، وهو فوق التحزيات السياسية وفوق الغايات الفردية ، كما أنهم رهن استقلال البلاد ورعن مجدها وعظمتها . وهذا ما يجب أن يكون في كل شعب يشعر بواجبه تجاه رئيس دولة المستقلة .

ولئن سمعنا من حين إلى آخر بحوادث سياسية داخلية فهي لا تتجاوز أبواب الأحزاب ، ولا تتناول الأمس التي يقوم عليها استقلال العراق . وجميع من عرفت من رجال الدولة وأركان الجيش ، أيها كانت آراءهم الفردية ، بلتفون دائمًا عند تلك الأمس ، ويدافعون عنها بالنفس والنفس . وتقوم الفكرة العربية في العراق على أساس قويم : وهو من حيث السياسة التمسك بالقومية العربية ، والعمل على تساند بلاد العرب اقتصادياً

ومثقفياً ودفعياً ، على شكل عصبة دول عربية منازلة ربنا يساع الحادها . أما من حيث الثقافة فالأساس الذي تقوم عليه الفكره العربيه هو أوله التمسك باللغة العصبية وتراثها الأدبي والروحي ، ثانياً اقتباس المفہد من علوم الغربيين الحديثة ووسائلهم المادية وأساليبهم في العلم والتفكير . ثالثاً الاحتفاظ بالسليم من عادات العرب وأخلاقهم ، كالاحتفاظ بالأسرة ، واحترام الصغير للكبير ، والدفاع عن العرض ، والشتم وإباء الشيم والكرم والنجدة وأمثالها من الصفات الحميدة .

ومما يدعوا إلى الارتياج كون مبادئه الفكرة العربية تثبت في أنحاء العراق على شكل منتظم سواه في مدارس الحكومة ، أم في نوادي الجميات القومية كنادي المشى ونادي الجوال ، أم في الجميات الرياضية كالكتافة وأمثالها ، أم في جمعية الشبان المسلمين حيث اتساع أفق العمل لا يحول دون بث المبادئ القومية الصحيحة . ولا يوجد في العراق قوة داخلية أو خارجية تستطيع التأثير في اتجاه الحركة القومية أو تستطيع عرقلة سيرها المستمر . فالشيعة والسنّة العرب ، وهما الأكثريتان الكبار ، سواسية بالوطنية العربية الراسخة . وأكراد شمالي العراق ، وهو سبعين بالمائة ألف ونinet، يشعرون بأن ما يلقونه في العراق لا يجدونه في بلاد أخرى . فكيانهم ولسانهم وعاداتهم كلها محترمة . وهو يعودون مع سائر العراقيين أبناء وطن واحد في الحقوق والواجبات . ومن أسهل الأمور عندهم وأدعاها إلى اغباضهم تشقفهم بالثقافة العربية ومشاركة العرب في خدمة وطن هو وطن الفريقين . وقد ألف الكرد الثقافة العربية منذ قرون ، وخدمها بعضهم خدمات معروفة في التاريخ . أما المسيحيون في العراق فقد ددم اليوم نحو مائة ألف نسمة ، ومعظمهم ساميون استعربوا منذ القدم ، وشاركون المسلمين في اتجاهاتهم القومية سياسياً وثقافياً . وأما بود العراق فقد ددم مخالون ألفاً تقريباً وهو يسكنون العراق منذ زمن طويل ، وليس لهم فيه مطامع سياسية على ما يقولون . وهم الأكبر أن يظلو محتفظين بركزهم

الاالي والتجاري ، وهو حال او هو احتكار لا يجوز بقاوئه . وخمسة أسداس سكان العراق عرب والمدرس أكراد وأتراء . ولا زيد الا زراك على ٥٥٠٠٠ نسمة أي على واحد ونصف في المثلث من بجموع السكان . ويتبين من ذلك أنه لا يوجد داخل العراق عناصر ذات شأن تجحد الفكرة العربية أو تكيد لها . ويشعر كل عربي بكل العراق بأنه في بلده .

وقد ذكرت أن الحكومة العراقية هي التي تهيم في مدارسها على تقافة الأحداث ، وهي التي تعليمهم بطابع الثقافة العربية الشاملة . أما

الجيش العراقي فهو يت لهم بمقدار فكرة الایثار والتضحيه والعمل جماعات منظمة معالمه في سبيل الامة والوطن . ويكون عمل الجيش إما في الثكنات ، وإما في المدرسة العسكرية ، وإما في جماعات الفتوة في مدارس التجييز حيث شاهدنا خابطا يدرس في أحد الصفوف ، وشاهدنا متودعا فيه لكل تلميذ بندقية وحربة وبمجموعه من الأسلحة العسكرية .

وهكذا يخرج كل تلميذ من مدارس التجييز « أو من المدارس العليا » وهو خابط احتياطي في الجيش العراقي الباسل . ومتى علمنا أن العراقيين شجعان أشداء الشكيمة لم تخنثهم رذائل المدينة الحديثة ، وعلمنا أن في أعمال الري وفي تأسيس المعامل الصناعية متsuma لأن زداد سكان العراق أضعافاً ، أدركنا على الفور ما سيكون للعراق من شأن عظيم في العالم العربي .

وفي العراق نهضة أدبية لست أنها في اجتماعنا إلى أعضاء نادي القلم ، وم عصبة فيه الكاتب والشاعر والأديب والعالم . ولا شك أنهم يمثلون فاجية بارزة من نواحي الثقافة العامة في العراق . أما الصحافة فقد تقدمت تقدماً عظيماً ، سواء من حيث الماده العلمية في الموضوعات التي تطرقتها ، أم من حيث لغة الكتابة . ومن الصحفيين نواب وأدباء ووطنيون صادقو الوطنية . لكن في العراق كما في الشام إقبالاً على اتخاذ الصحافة منه سهلة . وهذا سار يصدر في بغداد وحدها عشر صحف يومية أو أكثر

وهو عدد كبير إذا قيس بعدد قراء الصحف في العاصمه العراقيه وفي الأطراف . ومن الجلات الراقية التي أطالعنا عليها مجلة « المعلم الجديد » ، كصدرها وزارة المعارف ، ومجلة « العالم الاسلامي » ، كصدرها جمعية الشبان المسلمين . وأسفنا لاحتياجنا لاحتيجانا لغة العرب ، لأنسباب مالية . وهي المجلة العربيه اللغوية المقيدة التي كان يصدرها العلامه الأب السادس ماري الكرمي . ويقرأ العراقيون كثيراً بعض الجلات التي تصدر في مصر كالقطعنف والهلال والرسالة والثقافة .

وتتجلى النهضة الرياضية في النادي الاولى العراقي وبنائه الكبير وملعبه الحسنة ، وفي بناء السباق الفخم ومطاره الواسع ، وفي جامعة الكشافة والألعاب على أنواعها ولا سيما الكرة والتنس . وللرياضة شأن في مدارس العراق ، لكننا لاحظنا أن بنية عدد من تلميذات المدارس التي زرتها ضعيفة تدل على أمهن في حاجة إلى تزويدهن ساعات الرياضة البدنية .

ولم أتمكن من درس النهضة النسائية وأهدافها وتقديرها ، إلا أنني لاحظت كون تعلم البنات ينتشر بسرعة ، وشاهدت عدة تلميذات بدرسن في دار المعلمين العليا ومعهد الطب والحقوق . ووقفت في قاعة التثريح بمعهد الطب أمام طابة عاكفة على رأس ميت تذكر أجزاءه بشرط في يدها . خدقت في وجه الطابة أترسم الخوف أو الاشمئزاز في ملامحها ، وإذا بها باسمة كأنها تنشر تقاحة ! ولعلها خذلت أن تكون أنا الصاب بالخوف أو الاشمئزاز ! .

وذكر لي من شقيقه أن المرأة العراقية تقدمت كثيراً في تفكيرها وثقافتها ، منذ أخذت مدارس البنات تنتشر ، ومنذ سهلت وسائل الاتصال في السنتين الاخيرتين . والمحجب في العراق كالمحجب في الشام لا يوجد إلا في المدن . ومع هذا فقد كنت أرى عدداً من النساء يستعنن إلى الوطنية . لكن في العراق كما في الشام إقبالاً على اتخاذ الصحافة منه سهلة . وهذا سار يصدر في بغداد وحدها عشر صحف يومية أو أكثر

المهجبات في الشوارع ودور السينا ، ولاحظت أن عددهن هنالك يفوق كثيراً عدد المتجهبات . ولا يمكّن أن أتبين دينهن لأن كل النساء يرتدين فوق ثيابهن عباءات سوداء جليلة على نسق واحد معظمها من حرير . ولا تقتصر النعمة المعمارية على العاصمة وحدها بل تعمسائر مدن العراق . ولقد شاهدت شوارع واسعة نظيفة وحدائق بلدية ودوراً جليلة في المدن الصغيرة التي زرتها أو مررت بها كالنجف وكربلاء والحلة والرمادة وغيرها . وقيل لي إن في الموصل حديقة بلدية من أجمل الحدائق ، وإن فيها شوارع نظيفة عريضة من فئة .

وبعد ، إن العراق ابن عشر سنين أو عشرين سنة في الفرط ، ولهذا لم يبلغ إلى اليوم أشدّه ، ولا يزال أمامه متسع للعمل في فواجي الحياة العامة ولا سيما فيما أشرت إليه من أعمال الأسفار ورفع مستوى الفلاح « بإيجاد الملكية الزراعية الصغيرة وتحسين وسائله الصحية » والعمل في تجارة البلاد وسائر اقتصادياتها . لكن العراق عرف الطريق القوم فبدأ يسلكه . وهو اليوم يسير إلى الإمام بخطى واسعة مردداً قول القائل :

بني كا كانت أوائلنا
تبني ونفعل مثلما فعلوا

دمشق : شباط سنة ١٩٤١ .